

تاريخ التصوف في المجتمع المغربي

الدرس
18

أهداف الدرس

1. أن أتعرف تاريخ التصوف في المجتمع المغربي .
2. أن أثبتن مراحل التصوف في المجتمع المغربي .
3. أن أعتز بالتاريخ الفكري والديني للتصوف في المجتمع المغربي .

تمهيد

إن التصوف في تاريخ المجتمع المغربي لا ينفصل عن الدين ، بل عليه يعتمد ، ومنه استمد ، فوجوده بوجود الدين وانتشاره ، وقد انتشر التصوف بالمغرب على مراحل ، لكل مرحلة أعلامها وخصائصها ، وقد شكلت مجموع تلك المراحل تصوفا مغربيا له مميزاته وخصائصه .
فما تاريخ التصوف في المجتمع المغربي؟ وما أهم مميزاته وخصائصه؟ .

نص الانطلاق

قال العلامة محمد الروكي -حفظه الله- مبينا منهج المغاربة في التكوين والتعليم والتدريس: «كان المتعلم يأخذ حظه من المادة العقدية والفقهية والسلوكية التربوية جنبا إلى جنب في حلقات التكوين والتلقي ، وتميزت مصنفات فقهاء المالكية باشتغالها على هذه الدعائم أيضا؛ حيث تبتدئ بمقدمة في الاعتقاد وأصول الدين: ثم يلي ذلك أحكام العبادات والمعاملات ، ثم تُختم بالآداب والأخلاق ، وهو ما اصطلح عليه بالجامع . ومن نظر في رسالة ابن أبي زيد القيرواني المالكي تأكد من ذلك واستيقنه ، فقد صدرها بعد المقدمة بقوله «باب ما تنطق به الألسنة وتعتقده الأفئدة من واجب أمور الديانات» وانتقل بعد ذلك إلى عرض جملة من مسائل العبادات والمعاملات وأحكامها الشرعية . ثم ختمها بجملة من الفضائل والأخلاق الإسلامية ومحاسن الشريعة وآدابها ، ليكون غذاء للقلب والروح . وحتى الذين راموا التصنيف في الفقه

المالكي بالنظم والأراجيز التزموا بذلك ولم يتجاوزوه، فالمرشد المعين لابن عاشر وهو من المتأخرين، يبتدئ بمقدمة لكتاب الاعتقاد، يليها نظم أحكام العبادات، ثم ينتهي بكتاب مبادئ التصوف الذي اشتمل على جملة من أخلاق الإسلام ومكارمه وفضائله وقيمه التي هي قوام التربية القلبية الإيمانية...، وتربى عليها هذه القرون كلها، وتناقلها جيلا بعد جيل، وورثها الخلف عن السلف حتى صارت جزءا لا يتجزأ من ذاته وحضارته وثقافته»

[المغرب مالكي لما ذا؟، ص 8].

الفهم

الشرح:

- **أصول الدين:** يقصد بها مجمل المسائل الاعتقادية التي يبنى عليها الدين.
 - **مبادئ التصوف:** ما يتوقف عليه معرفة كيفية إصلاح القلب وتزكيته.
- **استخلاص المضامين:** أتأمل النص، وأستخلص منه ما تميز به المغاربة في التأليف والتعليم وأثر منهجهم في نشر التصوف في المجتمع.

التحليل

أولا: تاريخ التصوف في المجتمع المغربي

تشير آراء العلماء المؤرخين للتصوف المغربي في بواكره الأولى إلى اعتبار «أبي يزيد البسطامي» و«الجنيد» من منابع التصوف المغربي، ويرجع ذلك إلى مرحلة تاريخية مبكرة، وهي القرن الثالث الهجري؛ «حيث تبلورت الحركة الصوفية في منهجين: منهج أبي يزيد البسطامي، ومنهج أبي القاسم الجنيد...، أما أبو القاسم الجنيد فهو إمام العارفين، وممن لم يكونوا يطلقون القول دون تدقيق وتبصر، فلا تغلبه العاطفة، ولا تغرقه الأحوال، وبذلك استطاع أن يوفق بين مقتضيات الشريعة، ومعاني التصوف...، فكان هو الإمام الذي اختار المغرب مذهبه، وسار على منهجه، كما اختار عقيدة الأشعري، وفقه الإمام مالك، ولكن هذا لا يعني أنه ليس بين رجال التصوف المغربي منهج أبي يزيد، بل العكس هو الصحيح، فإن التصوف المغربي كغيره محتو

على صوفية الحقائق، طبق منهج أبي يزيد، وصوفية الأخلاق والرقائق على طريقة الجنيد» [التصوف الإسلامي في المغرب، علال الفاسي، ص 14]. وطريقة الجنيد هي السائدة وعليها العمل واختيار المغاربة، كما سبق بيان ذلك في درس التصوف السني.

وإذا كان التأريخ الدقيق للتصوف في المجتمع المغربي يقتضي تناول مختلف مراحل بالبيان والتفصيل - وهو ما لا يتسع له المقام - فيكفي الإشارة لبعض المراحل لتأسيس تصور عام حول تاريخ التصوف بالمغرب. وإذا كان الأمر كذلك فبدهي أن يكون لكل مرحلة ما تختلف به عن غيرها، وتختلف الآراء في تحليل مختلف المراحل بين من يرى ما حصل في بعضها سجالات علمية يقتضيه التفاوت في النظر والفهم، وبين من يعتبره تضيقاً على الرأي المخالف، ووفقاً لرأي العلامة عبد الله كنون فإن التصوف عرف مراحل من التضيق وعدم الانتشار في بعض العصور من تاريخ المغرب بسبب هيمنة الفقهاء على الحياة العلمية والسياسية؛ حيث يرى أن التصوف والكلام لم ينتشرا بكثرة بسبب موقف فقهاء العصر المرابطي، ورغم تباين المراحل والمواقف فإنه - وفقاً لرأي عبد الله كنون - «لم يقض الفقه على التصوف، ولكنه أخضعه لسلطانه. وقد يقال إن العصر (عصر المرينيين) بالنسبة للتصوف كان عصر تمحيص بسبب هيمنة الفقهاء عليه، وما أحسن التصوف يسير في ظلال الفقه؛ إذ يكون هو لبّ الشريعة المكنون، وسرّها المصون، وقد كان من أقطابه في هذا العصر «ابن عباد الرندي» الذي قضى أكثر حياته في فاس، وابن الحاج الفاسي، وأحمد زروق. وكتبهم فيه لا تزال من خير المصادر للتصوف الموزون بميزان الشرع» [النبوغ المغربي، 1/195]. كما يرى أنه في «عصر السعديين» «طغى عليه (التصوف) سيل التدليس والتلبس، فقيض الله له مثل «ابن خجو» و«الهبطي» فهذباه ونقحاه، وكان الشيخ أبو العباس الصومعي، حامل رايته علماً وعملاً» [النبوغ المغربي، 1/241]. غير أن هذه المواقف لا تكاد تذكر مع ما عليه السواد الأعظم من أهل المغرب في العناية بالتصوف وأهله.

ثانياً: شعب التصوف في المجتمع المغربي

يلاحظ المتتبع لتاريخ التصوف في المجتمع المغربي أنه ذو شعب مختلفة؛ فهناك:

- **تصوف الفقهاء**، الذي يمثله الإمام أبو عبد الله بن الحاج العبدري الفاسي في كتابه المدخل، والذي اعتبر من رجاله المتأخرين القاضي الرندي قاضي فاس الذي عرف عنه الكلام «في علوم الأحوال والمقامات والعلل والآفات، وألف فيها تأليف عجيبة، وتصانيف بديعة غريبة، وله أجوبة كبيرة في مسائل العلوم» [الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى، للناصري، 4/84].

- **تصوف أهل الحقائق**، ويمثله ابن سبعين، وابن عربي، وابن العريف الذي يعد من مشاهير أولياء المغرب، ومن أعلام الزهد والتصوف، وصفه الإمام الذهبي بقوله: «الإمام الزاهد العارف، أبو العباس بن العريف الصنهاجي الأندلسي المَرِيّ، المقرئ، صاحب المقامات والإشارات» [سير أعلام النبلاء، 111/20].

- **تصوف الأخلاق والرقائق**، وهو الذي استقر عليه عامة المتصوفين المغاربة، وكان له الأثر الفعال في مجتمعنا الإسلامي المغربي [التصوف الإسلامي في المغرب، ص 14 بتصرف]. وهذا الصنف من التصوف هو مقتضى طريقة الإمام الجنيد، ومن أبرز الأعلام الذي كان لهم أثر في إحيائه وامتداده الإمام الغزالي؛ حيث «نجد أن تعاليم الغزالي الذي حافظ على مبادئ الجنيد، وجدت في بلادنا أرضاً خصبة؛ لأن الغزالي من الذين استطاعوا أن يفرقوا بين الفلسفة القرآنية وبين فلسفة المدرسة العربية للفكر اليوناني، لا سيما والغزالي لم يصل إلى رتبة العارف الصوفي، إلا بعد أن عانى محنة البحث والنظر، وقد أعطانا في كتابه «المنقذ من الضلال» المنهج الذي سار عليه حتى وصل إلى نتيجته السعيدة» [التصوف الإسلامي في المغرب، ص 18]. وعبر عن بعض ما مر به من مراحل بقوله «أقبلت بهمتي على طريق التصوف، وعلمت أن طريقهم إنما تتم بعلم وعمل» [المنقذ من الضلال، ص 70].

ثالثاً: عصور التصوف المغربي

قسم العلامة علال الفاسي - رحمه الله - عصور التصوف المغربي إلى ما يلي:

1- **من عهد الجنيد**، وأبي يزيد إلى عهد أبي مدين، وعبد القادر الجيلاني. وكان لشخصية الإمام الغزالي أثر في تأسيس التصوف الخلقي الذي وصل إلى المغرب وتأثر به المغاربة عن طريق «صالح بن حرزهم» وابن أخيه علي «وقد حمل أبو مدين طريقة الجنيد للمغرب من سلسلة الشيخ عبد القادر، ومن جهة الغزالي عن علي بن حرزهم» [التصوف الإسلامي في المغرب، ص 88 بتصرف].

2- **من عهد أبي مدين وعبد السلام بن مشيش** إلى زمن الإمام الشاذلي في القرن السابع الهجري. وفي هذه المرحلة غلب على التصوف تربية المريدين، وجمع الناس للذكر والعبادة، وقد وقع التأثير في هذه المرحلة بالغزالي والجيلاني، سيما في أمور المجاهدة والتربية بالهمة والحال، وانتشر في هذه المرحلة أرباب المعرفة والصلاح.

3- من زمن الشاذلي إلى عهد الجزولي (من القرن السابع إلى القرن التاسع الهجري) وغلب على هذه المرحلة التعلق والاهتمام بالكرامات، بعدما تحقق الاطمئنان وقلت الفتن والاضطرابات.

4- من عهد الجزولي إلى يومنا هذا (من القرن التاسع إلى القرن الرابع عشر الهجري).

[التصوف الإسلامي في المغرب، علال الفاسي، ص 15 بتصرف].

رابعاً: تطور التصوف في المجتمع المغربي

عرف التصوف مراحل مختلفة على مستوى الاصطلاح والممارسة؛ حيث كان صوفية المغرب في بداية الأمر «يجمعون بين حياة الجهاد والحياة الدينية...»، فأخذ الرباط يفقد طابعه الحربي وتغلبت عليه الصفة الدينية، ولم يلبث انتشار التصوف أن خلق مبرراً لبقاء الربط، فتحوّلت إلى دور للمتصوفة، وبالتالي أصبح الرباط يطلق على المكان الذي ينزل فيه الصوفية، وكان للمغاربة رُبط في الأندلس، منها رُبط المرية، ثم انتشرت فكرة الرباط في الصحراء المغربية للعلم والتعبد والجهاد، وتطورت بعد في المدن إلى شكل زوايا، تهتم بتعليم الدين، وتربية المريدين، ويفد إليها الفقراء للإقامة بها على شكل أهل الصفة، ثم أصبحت كلمة المرباط علماً على أبناء الصالحين، الذين رابط أسلافهم أو كانوا رؤساء زوايا...» [التصوف الإسلامي في المغرب، ص 15]. وتباين فضل السبق بين مختلف مناطق المغرب «ومنذ نهاية القرن الرابع الهجري نجد في وادي نفيس (نهر يقع ضواحي مراكش) دار المرابطين أسسها وجاج بن زلو اللمطي...، وهو سوسي الأصل رحل إلى القيروان، وأخذ عن أبي عمران الفاسي، ثم رجع إلى سوس فبنى بها داراً سماها بدار المرابطين لطلبة العلم وقراءة القرآن، وكان المصامدة يزورونه ويتبركون بدعائه، وإذا أصابهم قحط استسقوا به، ثم رباط عبد الله بن ياسين في الساقية الحمراء...، وقد كان في نفس الوقت رباط في «تيط» جنوب أزمو» [التصوف الإسلامي في المغرب، ص 15]. وبهذا يظهر ما كان من تأثير وتأثر في الأخذ عن مشايخ التصوف ونقل مسالكهم واختياراتهم بواسطة تلاميذهم ومريديهم الذين أخذوا عنهم.

خامساً: مميزات التصوف في المجتمع المغربي

تميز التصوف المغربي على مستوى المعرفة والسلوك بجملة من المميزات، أهمها:

1. التكتم واجتناب حب الظهور، ولعل مرد ذلك إلى الحرص على ما يقتضيه العمل الصالح من إخفاء وستر حرصاً على إخلاص النية، إلا إذا وجد ما يقتضي إظهاره لمصلحة راجحة «والمتتبع

لأخبار الصوفية المغاربة يجدهم راغبين في التكتم، بعيدين عن حب الظهور، لا يرون لأنفسهم الأهمية التي تدفعهم إلى جمع الناس من حولهم أو التكثر بهم، وما فكروا في الظهور وجمع الناس على الذكر والتلاوة حتى رأوا أن مصلحة الإسلام في ذلك لضرورة تشغيل الجمهور وتحميسه، وعدم تركه لدعوات النصارى والمتنبئين والمبتدعين» [التصوف الإسلامي في المغرب، ص 25].

2. اتصاف رجاله بالعلم والورع، وما يجمعونه من معارف في مختلف الفنون، وتميز في التربية والسلوك، قال العلامة علال الفاسي -رحمه الله-: «ومما امتاز به التصوف المغربي أن معظم رجاله ودعاته من أهل العلم بأصول الدين وفروعه...» [التصوف الإسلامي في المغرب، ص 26]. فكان أولياء المغرب كما وصفهم ابن الزيات بقوله «أقبلوا بالقلوب على مقلبيها، وأقاموا النفوس بين يدي مؤدبيها، وسلموها إذ باعوها إلى صاحبها، وأحضروا الآخرة فنظروا إلى غائبها...، ومقتوا الدنيا فما مالوا إلى ملاعبها، واشتاقوا إلى لقاء حبيبهم فاستطالوا مدة المقام بها» [التشوف إلى رجال التصوف، ص 38].

3. تأثير التصوف على مختلف مناحي الحياة؛ حيث لم يكن أرباب التصوف منعزلين عن الحياة العامة، بل منخرطين ومؤثرين فيها، يوجهون المجتمع في مختلف القضايا ويشاركونه فيها، وجهود أهله في مختلف المجالات الاجتماعية ظاهرة «والتصوف المغربي إلى جانب الفقه المالكي له الأثر الفعال في توجيه كل الأفكار والسياسات التي جرت في بلادنا؛ فالفقه والتصوف عنصران أساسيان في تكوين المجتمع المغربي وتسييره» [التصوف الإسلامي في المغرب، ص 26].

4. التربية المتكاملة، تميز التصوف في المجتمع المغربي بالتربية المتكاملة، كما يظهر ذلك في تأليف صوفية المغرب أمثال الشيخ أحمد زروق، وتؤكدده مختلف مؤلفات المغاربة ومجالس تدريسهم؛ حيث «كان المتعلم يأخذ حظه من المادة العقدية والفقهية والسلوكية التربوية جنبا إلى جنب في حلقات التكوين والتلقي» ويلاحظ المتتبع لمؤلفات المغاربة إدراج أبواب التصوف في مختلف الفنون، وذكر العلامة محمد الروكي أنه قد «تميزت مصنفات فقهاء المالكية باشتغالها على هذه الدعائم أيضا، حيث تبتدئ بمقدمة في الاعتقاد وأصول الدين: ثم يلي ذلك أحكام العبادات والمعاملات، ثم تختتم بالآداب والأخلاق، وهو ما اصطلاح عليه بالجامع». ويدل هذا الاختيار على منهج التنشئة العلمية السائد في البلد، كما يدل على دعائم بناء العالم الرباني الجامع بين العلم والعمل.

سادسا: أثر التصوف على المجتمع المغربي

إن مختلف مراحل التصوف في المجتمع المغربي أثمرت ثمارا وطّدت صلة المغاربة بالدين والعلم والعمل، سواء العامة منهم أو الخاصة، ومن تلك الآثار:

– **انتشار الرباطات والزوايا ومراكز العلم؛** حيث الاجتماع «في الزوايا للصلاة وقراءة الأوراد الصوفية، وتكاثر عدد الزوايا بالمغرب بانتشار التصوف فيه ابتداء من القرن الهجري السادس. والعلاقات كانت وطيدة بين مختلف الزوايا بسبب اتحاد المنبع الصوفي، وإن اختلفت الطرق والأسانيد الموصلة إلى أبي الحسن الشاذلي وشيخه عبد السلام بن مشيش العلمي، وربما كانت هذه الوحدة أيضا من خصائص التصوف المغربي» [المؤسسات الدينية بالمغرب، لمحمد حجي، ص 114-121 بتصرف].

– **بناء الإنسان الصالح،** المتشبع بكمكارم الأخلاق المتحلي بالفضائل، وذلك بما يتلقاه من تربية على يدي الشيخ المربي في مجالس الذكر والعبادة، وأثمر ذلك خشية وتوقيرا.

– **الأمن المجتمعي،** وهو أمن متعدد، يشمل ما هو ما معنوي وما هو مادي من خلال تلبية الحاجات الإنسانية والتعاون في توفير متطلباته، وتقليل سبل الانحراف، وتعزيز الإيمان المحقق للأمن المثمر للسعادة والسكينة التي تثمر مجتمعا آمنا.

– **وحدة المجتمع وتمسكه،** من خلال اتباعه «طريقة الجنيّد» واجتماعه على ما هو متعارف عليه لدى أرباب الطريقة، ونبذ الفرقة والاختلاف، وهو تميز مشهود عبر قرون.

– **تميز مسالك التربية والتعليم لدى المغاربة،** بما ينهجه الشيوخ في التزكية والتعليم والتأليف، وما يتبعونه من مسالك في التصوف غايتها التخلي عن الرذائل والتحلي بالفضائل، قال العلامة محمد الروكي مبينا ما أثمرته مناهج التأليف والتصنيف لدى المغاربة في إدراج التصوف في مختلف العلوم «وتربى عليها هذه القرون كلها، وتناقلها جيلا بعد جيل، وورثها الخلف عن السلف حتى صارت جزءا لا يتجزأ من ذاته وحضارته وثقافته».

التقويم

1. أبين أهم المراحل التي مر بها التصوف في المجتمع المغربي.
2. أبرز مميزات التصوف في المجتمع المغربي.
3. أبين أثر التصوف في المجتمع المغربي.

الاستثمار

قال العلامة ابن خلدون - رحمه الله - في وصف حال المغرب الأقصى زمن يوسف بن تاشفين وعبد المؤمن بن علي وبنيتهم: «كان لهم في الاهتمام بالعلم والجهاد وتشديد المدارس واختطاط الزوايا والرُّبُط، وسد الثغور وبذل النفس في ذات الله، وإنفاق الأموال في سبيل الخيرات، ثم مخالطة أهل العلم وترفيه مكانهم في مجالستهم ومفاوضتهم في الاقتداء بالشرعية والانقياد لإشاراتهم في الوقائع والأحكام، ومطالعة سير الأنبياء، وأخبار الأولياء...، وإنصاف الرعايا من العمال، والضرب على يد أهل الجور، واتخاذ المساجد بصلح دورهم وشدة خلافهم وملكهم، يعمرونها بالصلوات والتسبيحات والقراء المرتبين لتلاوة كتاب الله أحزابا بالعشي والإشراق على الأيام، وتحصين ثغور المسلمين بالبنيان المشيد والكتائب المجهزة، وإنفاق الأموال العريضة، شهدت لهم بذلك آثار تخلفوها بعدهم».

[تاريخ ابن خلدون، 6/137 بتصرف]

أتأمل النص، وأستخلص من خلاله ما يدل على عناية المغاربة منذ القدم بالتصوف.

الإعداد القبلي

أبحث عن مفهوم الربانية، وصفات الإنسان الرباني.